داني بيتر *

الصهيونية والتاريخ: هل حقا بيني موريس مؤرخ جديد؟

ماركس عن التاريخ:

التاريخ لا يفعل شيئا فهو لا يملك ثراء فاحشا، ولايقاتل في المعارك.. إن بشراً من لحم ودم هم من يصنع كل شيء، يشترون العتاد ويخوضون الحروب»

(اقتباس ا . هـ. كار في كتابه «ماهو التاريخ؟» ص٥٩)

مقال عن مقال

نشر المؤرخ بيني موريس في ٢٠٠٢/٤/١٦ مقالا في ملحق جريدة «هآرتس» («سفاريم» – كتب) قيم فيه كتابان صدرا لـ مردخاي بارأون ، الاول بعنوان «الذاكرة ككتاب» (حول تاريخ حرب الاستقلال – ١٩٤٨) والثاني «حدود من دخان» (وهو عبارة عن تأملات في تاريخ دولة اسرائيل ١٩٤٨ – ١٩٦٧). بداية تجدر الاشارة الى ان بيني موريس كان قد اصبح في الموعد الذي نشر فيه المقال، بيني موريس آخر.. اذ لم يعد من اهم «المؤرخين الجدد» حيث كان قد كشف عن مشكلات اساسية في تاريخ الدولة، مثل مشكلتي اللاجئين والعمليات الانتقامية .. لقد بات مؤرخا نشر قبل شهرين فقط من تاريخ نشر المقال المذكور، اي في شباط ٢٠٠٢، مقالا في صحيفة «الغارديان» البريطانية، يتراجع فيه عن اسهامه الكبير في اماطة اللثام عن «النكبة» الفلسطينية والمسؤولين عنها. وقد كتب في مقاله هذا قائلا: ان «كل من استخدم بحوثي بهدف ابراز دور اسرائيل ومسؤوليتها، لم يأخذ بالحسبان بانني اكدت في الخلاصة بان مشكلة اللاجئين كانت حتمية، نتيجة للموقف الصهيوني باقامة دولة يهودية على ارض مأهولة في غالبيتها بالفلسطينيين، ونتيجة للرفض العربي للمشروع الصهيوني.»

ويؤكد موريس في ختام مقاله على وجهة نظره القائلة بان عرفات لا

* مربٍ ونشيط في حركة السلام الإسرائيلية.

الترحيل بالقوة: الحكاية المغيبة

يستطيع – او لا يريد– اقامة سلام على ٢٢٪ من ارض اسرائيل الانتدابية، تشكل دولة اسرائيل ٧٨٪ من مساحتها وسط التنازل عن حق العودة.

وتأسيسا على ذلك يستنتج موريس مؤكداً: «اعتقد ان التوازن بين التفوق العسكري (الاسرائيلي د .ب) والتفوق الديمغرافي (الفلسطيني– د .ب) هو الذي سيقرر مصير الدولة : فاما ان تكون فلسطين دولة يهودية دون وجود اقلية عربية كبيرة، او ان تكون دولة عربية تعيش فيها اقلية يهودية تتضاءل تدريجيا، او ان تصبح ارضا محروقة نتيجة لاستخدام سلاح ذري، فتغدو غير تابعة لاي من الشعبين».

بهذا الموقف الفكري يضع بيني موريس «الجديد» (وربما «غير الجديد» الى حد كبير) يضع نفسه في الطرف اليميني للمجتمع الاسرائيلي ، وهو كتحصيل حاصل لهذا الموقف، وهذا ما سأبينه لاحقاً، يسوق تقويمه لمواقف مردخاي بارأون.

بارأون شخص مختلف كليا، اصبح مؤرخا في السنوات الاخيرة فقط وهو من مؤسسي حركة «السلام الان» ، كان قبل ذلك عسكريا في الجيش النظامي لسنوات عديدة وقائد سرية في لواء غبعاتي العام ١٩٤٨ ومديرا لمكتب رئيس هيئة الاركان العامة موشيه ديان في العام ١٩٥٦، وضابط الثقافة الرئيس المسؤول عن تنمية التراث القتالي في الجيش الاسرائيلي في الستينيات.

ويقتبس بيني موريس من مقاله بارأون، «الذاكرة الجماعية وحقيقة ما حدث» الفقرات المهمة التالية:

«الصراع بيننا وبين العرب لم يكن مكمنه خطأ ارتكبه هذا الطرف او ذاك، وانما في التجربة الصهيونية ذاتها.

فمنذ اللحظة التي سعى فيها اليهود الى اعادة بناء سيادتهم القومية في ارض اسرائيل...، لم يعد هناك مفر من الصراع المرير.. نظراً لان الصهيونية هي الطرف المدبر للعملية الاساسية بادخالها الى الشرق الاوسط طرفا سعى الى قلب الوضع رأساً على عقب، ومن واجبنا الاعتراف بانها (الصهيونية) كانت ايضا المحرك الرئيسي للصراع.. لم يبدأ الصراع في العام ١٩٤٨، وانما عقب وصول اوائل الصهاينة الى ارض اسرائيل في نهاية القرن التاسع عشر. ويؤكد بارأون ان تجربته وتجربة الاخرين، اثر قرار الامم المتحدة (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) هي التي اوجدت الفوارق بشأن اسباب الحرب: رفض العرب قبول قرار الامم المتحدة، والعدوان العربي الذي عرض حياتنا للخطر ... وبناء عليه فقد كان القاء مسؤولية الحرب على عاتق الجانب العربي، نتيجة طبيعية لتلك التجربة الجماعية ذاتها...

لكن، يتساءل بار أورن قائلا : «ما الذي يعنيه العدوان بالضبط؟ ربما كان من الاصح ان نرى في اعمال العرب محاولة يائسة للذود عن حقوق بدت لهم مكتسبة بحكم اقدميتهم ووجودهم بحد ذاته في هذه البلاد؟ هل حقا انه لا اساس للادعاء العربي بان قرار الامم المتحدة واعلان قيام الدولة(اسرائيل) كانا تعديا على حقوقهم الاساسية في هذه البلاد؟ وهل كان هناك حقا رفض غير منطقي وغير اخلاقي الى هذا الحد من جانبهم مثلما تزعم الرواية الصهيونية؟

من جهة ثانية، ما هو الخيار الذي كان متاحا لي ولزملائي في ذلك الوقت؟ فقد ولدت في هذه البلاد ولم يكن لي ثمة بيت آخر، وكنت ارغب بالعيش في ظل سيادة يهودية.. ولو تكررت الامور اليوم لكنت قد تصرفت تماما بنفس الطريقة التي تصرفت بها في العام ١٩٤٨... ولكن طالما ان وجود الدولة اصبح امرا لا شك فيه فانني قادر على رؤية الامور ايضا بمنظور مختلف واستيعاب انه.. في الصراع اليهودي – العربي لايوجد اخيار واشرار...».

ويكتب موريس ان «بارأون يذكر بصراحة مشاركته في عمليات

انتقامية ضد احدى القرى العربية خلال الشهور الاولى للحرب، وواقعة مقتل قرويين ابرياء في العملية نفسها...

كذلك ناقش بحث باراون مسألة ميزان القوى بين التجمع اليهودي والجيوش العربية، عقب تدخلها اثر اعلان قيام الدولة وجلاء البريطانيين عن البلاد.

فهل حقا قاتل دافيد اليهودي ضد جولييت العربي؟ يصف بارأون التجربة التي مر بها هو ونفر من زملائه على حاجز للجيش المصري في الطريق الى تل ابيب. وقد كانت هذه تجربة تفوق هائل للعدو في اجتياحه للبلاد. وهو يؤكد عمليا بان «ذلك لم يكن انعكاسا حقيقيا لموازين القوى الفعلية طوال اشهر الحرب، على الجبهات المختلفة».

بالنسبة لمشكلة اللاجئين يؤكد بارأون بانه شارك شخصيا في احتلال قرى خلت من سكانها، وان زملاءه طردوا لاجئين من قراهم لان «مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نشأت في المحصلة نتيجة لظهور الصهيونية في البلاد. فلولا قيام الحركة الصهيونية بمشروع جمع الشتات اليهودي واستيطان البلاد.. لكان مئات الاف اللاجئين (الفل) لا زالوا يعيشون حتى يومنا هذا على ارضهم وديارهم».

على الرغم من وجود تباعد كبير بين موريس وبارأون في الواقع الاسرائيلي، الا ان هناك خلافاً جوهرياً واساسياً بيني وبين الاثنين، انه خلاف تاريخي مبدئي حول التاريخ. وليس صدفة على الاطلاق ان تقويمات باراون تحوز الى حد كبير على اهتمام بيني موريس الحالي.

مبادئ في التاريخ

ان ملاحظة فارق التواريخ البسيط بين مقالَي بيني موريس، المقال المنشور في «الغارديان» والمقال المنشور في (سفاريم – هآرتس) تكفي بحد ذاتها لادراك ان موريس يرى في «باراون» حجة ومعينا يدعم استنتاجاته الحالية او الراهنة. وبغية شرح وجهة نظري، سوف ألجأ الى محاضرات البروفسور ا. هـ. كار الانجليزي الرائعة التي قدمت تحت عنوان «ما هو التاريخ؟» (والتي يعود تاريخها الى العام ١٩٦١ وتمت ترجمتها الى العبرية العام ١٩٨٦).

عن الحتمي واللاحتمي في التاريخ.

«عمليا فان المؤرخين لايعتقدون ان الاحداث حتمية طالما انها لم تقع او تحدث فعليا. ويشير هؤلاء على وجه العموم الى دروب بديلة استطاع ابطال الرواية الرئيسيون السير فيها، وبذلك فهم يفترضون انه كان بالامكان الاختيار بين امكانيات مختلفة. ولكن مع ذلك يمضي المؤرخون ليشرحوا ما دعا في نهاية المطاف لاختيار طريق او درب محدد. ليس هناك في التاريخ شيئا حتميا، ما عدا بالفهم الشكلي. فحتى يحدث شيء ما بصورة مختلفة لا بد ان تكون مسبباتة ايضا مختلفة» (ماهو التاريخ؟ ص ١٠٣).

عن المقاومة في التاريخ

«لايجوز للمؤرخ التقليل من شأن المقاومة ... وقدكان للذين هزموا في بعض الاحيان، مساهمة مهمة في النتيجة النهائية وبدرجة لا تقل عن مساهمة الذين انتصروا..» (ص ١٣١).

عن المنتصرين والمهزومين

« التاريخ عبارة عن صراع يوجد فيه على الدوام منتصرون ومهزومون.. المنتصرون ينتصرون دوما، احيانا بصورة غير مباشرة وفي الغالب بصورة مباشرة، على حساب شخص ما ... ونحن في الحياة اليومية نساوم ونهادن كثيرا مع اهون الشرين او بوسائل سلبية من اجل اهداف ايجابية» (ص٨٦).

عن المؤرخ المعاصر(الحالي)

«الصعوبة التي يواجهها المؤرخ الحالي (المعاصر) في فصل شخصيته عن كونه مؤرخا حينما يبحث ويتناول فظائع عصرنا – ستالين ، هتلر، مكارتي– تنبع بالذات من كون هؤلاء من ابناء عصرنا، ولان مئات الالاف من الناس الذين عانوا من اعمالهم لازالوا يعيشون معنا. لهذا السبب بالذات يصعب علينا كمؤرخين التوجه اليهم كما يجب والتغاضي عن حقنا الانساني في محاكمتهم على اعمالهم» (ص ٨٥).

عن السياسي

«مهمة رجل السياسة ان ياخذ بالحسبان ليس فقط الجانب الاخلاقي والنظري، وانما ايضا القوى المؤثرة في العالم والقدرة على توجيهها او تفعيلها من اجل تحقيق اهدافه ولو بصورة جزئية على الاقل» (ص ١٣٢)

عن الماضى والحاضر

«كل مؤرخ يكتب عن الموضوع من وجهة نظره، وزمانه ومكانه.. والتاريخ حوار لانهائي بين الماضي والحاضر...(ص٦٤).

«يجب السعي لفهم الماضي في ضوء الحاضر وفهم الحاضر في ضوء الماضي.. ومن وجهة نظر المؤرخ فان ما لايسهم في هذه المهمة المزدوجة يعتبر عقيما ولا قيمة له» (ص ٥٩).

ما الذي كان حتمياً وما الذي لم يكن حتمياً؟

حيث ان «كل مؤرخ يكتب عن الموضوع من وجهة نظره وزمانه

ومكانه..» فان هذا الامر ينسحب تلقائيا على المؤرخين موضع نقاشنا. فكلاهما يكتبان عن الحاضر (موريس) وعن الماضي (بارأون) من نقطة انطلاق تاريخية مشتركة، تركز على عدم الحتمية. وترتبط لدى موريس بوضوح عدم حتمية الحاضر، وبالتالي المستقبل مع عدم حتمية الماضي.

وفيما يتعلق بماضينا فانني اميز بين الاثنين: بين حقيقة تحول فلسطين الى وطن للشعبين وبين طرق تحقق هذه العملية التاريخية. وبالنسبة لتحقق وحصول العملية في حد ذاته فقد بات ذلك حتميا في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين، وذلك من حيث ان اللاسامية والضائقة الاقتصادية راحا يتفاقمان بشكل مطرد الى ان بلغا اوجهما في الكارثة (المحرقة النازية) التي تعتبر (العامل المحرك). وقد حصلت النهضة القومية اليهودية في نفس الفترة التي شهد فيها العالم اجمع نهضة قومية (العامل المحفز)، وعندما اصبح تقرير المصير القومي لليهود قابلا للتحقق في هذه البلاد فقط، والتي راى اليهود انفسهم مرتبطين بها تاريخيا ودينيا (وقد كانت هناك محاولات اخرى لم تتكلل بالنجاح).

بهذا المفهوم كانت هذه العملية التاريخية حتمية حقا. وقد تأسست الحركة الصهيونية كحركة قومية وضعت نصب عينيها دفع اليهود للهجرة من اماكن اقامتهم الى وطن الفلسطينيين والقيام بنشاطات كولونيالية واسعة قدر المستطاع في هذه البلاد، بحيث يتطور هذا المشروع الكولونيالي الى دولة.

وقد لجأت القيادة الصهيونية في سبيل تحقيق هذه الايديولوجية الى سلسلة من الاعمال: «احتلال الارض (لغاية العام ١٩٤٨ عن طريق الشراء والطرد لاصحابها العرب) «احتلال العمل »، «الانتاج العبري» بانشاء اتحاد مهني لليهود فقط (الهستدروت) وبانشاء جهاز تعليم منفصل بشكل دائم، وتنمية وتطوير لغة وثقافة منفصلين.

وبهذا المفهوم لم يكن بوسع المجتمع الفلسطيني استقبال « الغزو» الصهيوني لبلاده بالترحاب، هذا «الغزو» الذي لم يشاور فيه المجتمع الفلسطيني ولا قيادته.

ولاجل تحقيق هدف الحركة الصهيونية استعانت قيادة الحركة على مر السنوات بسائر القوى العظمى التي امتلكت نفوذا وسيطرة في هذه البلاد او رغبت بامتلاك السيطرة والنفوذ فيها في المستقبل (تركيا، بريطانيا، الولايات المتحدة، فرنسا ، الاتحاد السوفييتي). وفي مقابل ما قامت به زعامة الحركة الصهيونية من تحركات واسعة بهدف اقامة صلات مساعدة وتحالف مع شتى القوى العظمى في فترات مختلفة فانه لم تجر اية خطوة ذات بال باتجاه تطوير واقامة علاقات تفاهم واعتراف بوجود مصالح مشتركة مع الفلسطينيين وزعامتهم.

ان اقامة وخلق هذه الصلات والنأي عن الصلات والسياقات الاخرى لم يكن باستطاعة احد القيام به سوى زعامة قومية متعصبة استشراقية في نظرتها الى العرب عامة والى الفلسطينيين على وجه الخصوص (كما هو معروف اظهرت الزعامة الصهيونية ليس نظرة استعلائية تجاه العرب وحسب، بل واتجاه اليهود الذين قدموا من اسيا وافريقيا. كذلك فقد ترفعت الزعامة ذاتها على يهود اوروبا، الذين كانت الايدش لغة ثقافتهم المزدهرة).

وقد لجأت القيادة الصهيونية في سبيل تحقيق هذه الايديولوجية الى سلسلة من الاعمال: «احتلال الارض (لغاية العام ١٩٤٨ عن طريق الشراء والطرد لاصحابها العرب) «احتلال العمل »، «الانتاج العبري» بانشاء اتحاد مهني لليهود فقط (الهستدروت) وبانشاء جهاز تعليم منفصل بشكل دائم، وتنمية وتطوير لغة وثقافة منفصلين.

معظم هذه الطرق والاساليب في تحقيق الصهيونية، رفضت منذ البداية من جانب اقلية صغيرة من الصهيونيين. وفي اعتقادي فانه سيأتي اليوم الذي سيدرس فيه المقالان المهمان جدا اللذان كتبهما المفكر اليهودي احاد هعام «حقيقة من ارض اسرائيل» (١٨٩١) واسحق افشتاين «مسألة غامضة » (١٩٠٧) في كافة المدارس. من هذين المقالين ساقتبس هنا عبارة واحدة فقط من مقال افشتاين والتي تتعلق مباشرة بموضوعنا ... حيث دعا اليهود الى «الابتعاد عن القومية ضيقة الافق التي لاترى سوى نفسها.. والى التحالف مع العرب بابرام ميثاق معهم يكون كبير الفائدة للجانبين وللانسانية جمعاء» .

اعداد رافضي السياسة المهيمنة لدى الزعامات الصهيونية ازدادت قليلا بمرور السنوات عبر «تحالف السلام» (اكاديميين من اصل الماني) وحتى «العصبة من اجل التقارب والتعاون اليهودي العربي» التي اقيمت في العام ١٩٣٩ وقد تضمن برنامجها الموقع في حزيران ١٩٤٢ بندين ميزاها عن الخط السائد جاء فيهما: «ستقوم في هذا البلاد دائما دولة ثنائية القومية ودون فرق بين الاغلبية او الاقلية داخل هذه الدولة» و«يمكن التوصل، الى حصص (نسب) هجرة متفق عليها لسنوات عديدة» وقد جرى التوقيع على البرنامج من جانب اشخاص كانوا في السابق اعضاء في «تحالف السلام» وانضمت اليهم احزاب صهيونية يسارية: «هشومير هتسعير»و«العصبة الاشتراكية» و«عمال صهيون يساريون». وكما هو معروف فلم يستمر نشاط العصبة سوى حتى تشرين الثاني من العام ١٩٤٧ وهي الفترة التي شهدت صدور قرار الامم المتحدة (قرار التقسيم) واندلاع الحرب.

اللجنة العربية العليا (التي مثلت الزعامة الفلسطينية) والتي ترأسها لسنوات طوال الحاج امين الحسيني لم تبحث بدورها ايضا ولاسباب

وقد لجأت القيادة الصهيونية في سبيل تحقيق هذه الايديولوجية الى سلسلة من الاعمال: «احتلال الارض (لغاية العام ١٩٤٨ عن طريق الشراء والطرد لاصحابها العرب) «احتلال العمل »، «الانتاج العبري» بانشاء اتحاد مهني لليهود فقط (الهستدروت) وبانشاء جهاز تعليم منفصل بشكل دائم، وتنمية وتطوير لغة وثقافة منفصلين.

في ظل الواقع الفلسطيني المريع الذي نشهده، يطالب بني موريس سري نسيبة بان «يشتري الشيكل الصهيوني» لا اقل ولا اكثر بقوله : لازال يتعين علي ان ارى زعيما فلسطينيا محبا للسلام مثلما يبدو سري نسيبة، ينهض ويقول : الصهيونية هي حركة تحرر وطني مشروعة، كحال حركتنا، وان لليهود نفس الحق الذي نملكه في فلسطين».

مفهومة، لكنها مغلوطة كلياً، عن وسيلة للاتصال مع حركة المهاجرين الى موطنها (موطن الزعامة الفلسطينية) «بغية ابرام ميثاق معها ينطوي على فائدة جمة للطرفين» (ي . افشتاين).

وقد تمادى الحاج امين الحسيني عندما زار خلال الحرب العالمية الثانية ، في اوج ايام الابادة مقر قيادة هتلر معربا عن استعداده لتقديم العون له.

خلاصة القول، فان هجرة اليهود الى هذه البلاد كانت بحد ذاتها من وجهة نظري عملية حتمية، كونت هنا بالتدريج امة يهودية – اسرائيلية، اما طرق تحقيق العملية ورغم العوائق الصعبة، فقد كان بامكانها ان تكون مختلفة جدا.

لكن التاريخ يصنعه البشر، وقد تغلب القوميون المتعصبون– كما حدث في حالات وامثلة تاريخية عديدة اخرى– على الاقلية الرافضة. فهل «قدم الرافضون (او المقاومون) مساهمة مهمة في النتيجة النهائية».

ما الذي حدث في ١٩٤٨

لا حاجة لان يكون المرء مؤرخا مرموقا لكي يتفق مع بارأون بان الصراع القومي لم يبدأ في العام ١٩٤٨، وانما منذ هجرة اليهود غير المتفق عليها الى بلاد الفلسطينيين. ولكن هل استنتاج بارأون بانه لم يكن هناك مناص من الصراع المرير» هو الاستنتاج الوحيد الذي ينبغي التوصل اليه (والذي يتفق معه بيني موريس). هل حقا كان قرار الامم المتحدة (قرار التقسيم) واعلان قيام الدولة عملا عدوانيا ضد الجانب العربي؟.

انا لا اتفق مع ذلك بل وأرفضه . فقرار الامم المتحدة بتقسيم البلاد الى دولتين مرتبطتين بعلاقات اقتصادية وتدويل القدس اقترح كحل وسط في نزاع قومي كان الجانب اليهودي العامل او المسبب الرئيسي في نشوبه (جدير بالذكر ان الموقف الذي فضلته لجنة الامم المتحدة التي بحثت القضية تمثل في الدعوة لاقامة دولة ثنائية القومية، ولكن عندما ادركت اللجنة ان العلاقات بين الشعبين لا تسمح بذلك لجأت اللجنة الى خيار التقسيم) .

ولكن ألم يكن رفض قرار التقسيم خطأ تاريخيا فادحا ارتكبه الجانب العربي؟.

اود اعادة القراء الى اقوال «كار» عن رجل السياسة» «الذي يتعين عليه ان يأخذ بالحسبان.. القوى الفاعلة والمؤثرة في العالم والقدرة على توجيهها او تفعيلها من اجل تحقيق اهدافه بصورة جزئية على الاقل». وفي اعتقادي فان من الجدير بالاشارة الى ان بن غوريون تصرف بقبوله لقرار التقسيم، حسب اسلوبه ونهجه كرجل سياسة حسب مواصفات كار. اما الزعماء الفلسطينيون وقادة الدول العربية المجاورة فقد اخطأوا في حساباتهم، اضافة الى ذلك فقد سعى بن غوريون دوما خلال الحرب الى كسب المزيد من الارض الـ «نظيفة من العرب» وابرم خلالها ايضا الاتفاق مع الاردن حول منع قيام الدولة الفلسطينية. لكنه (بن غوريون) قدر بصورة سليمة موازين القوى العالمية بعد الحرب وفي اعقاب الكارثة، وموازين القوى في المنطقة، في حين اخطأت الزعامة العربية الفلسطينية في غالبيتها الساحقة في تقديراتها. واقول غالبيتها وليس كلها لان الجزء الرئيسي في «عصبة التحرر الوطني» الفلسطينية بزعامة توفيق طوبي واميل حبيبي، قبل مشروع التقسيم وقد جرت كتحصيل حاصل لهذا القبول، الوحدة اليهودية – العربية للحزب الشيوعي في العام ١٩٤٨.

ماالذي يقصده بارأون عندما يقرر بصورة قاطعة ان موازين القوى بين الجيوش العربية التي اجتاحت البلاد لم تكن بالصورة التي رأيناها في ذلك الوقت؟ فهو لا يبرر بذلك الاجتياح كما انه يقينا لا يعيد التفكير فيما يتعلق بالتصدي لذا الاجتياح العربي. ألم يؤد هذا الرفض الذي اتخذه الشبان الشجعان الى صد الغزاة؟!

ان حقيقة كون الواقع قد برهن لنا جميعا، يهودا وعربا بان موازين القوى كانت وقتئذ مغايرة لما تصوره الجانبان (على الاقل اولئك الذين

«تنظيف» البلاد من العرب: شارون (الوسط بين الوقوف) ناشط منذ البدايات.

قاتلوا في الميدان) لا تغير شيئا في سلبية الغزو ولاتلغي ما قيل في صالح الذين دحروا هذا الغزو وردوه على اعقابه.

كذلك لا داعي لان يكون الانسان مؤرخا بارعا لكي يتفق مع بار أون بانه «لو لم تقم الحركة الصهيونية بمشروع جمع الشتات واستيطان البلاد.. لكان مئات الاف اللاجئين الفلسطينيين ما برحوا يعيشون حتى يومنا هذا فوق ارضهم».

ولكن وفي مقابل اتفاقي مع رأي بارأون هذا فان وجهة نظري تختلف اختلافا جوهريا مع طرحه (الذي يتفق معه بيني موريس) بانه .. «لو تكررت الامور اليوم فانني سوف اتصرف تماما بنفس الصورة الى تصرفت بها في العام ١٩٤٨»..

وبصفتي كنت واحدا من المقاتلين في العام ١٩٤٨ استطيع القول بثقة ان تعاملي في ظل المعلومات المتوفرة لدينا اليوم، وليس اليوم فقط، سيكون مختلفا كلية مع جوانب ومجالات مهمة من الحرب ولا سيما فيما يتعلق بنشوء مشكلة اللاجئين.

لماذا يتغاضى بارأون في ملاحظاته حول مشكلة اللاجئين عن خطط «الترانسفير» التي قبعت في عقول وجوارير العديد من الزعماء المهمين لحزب «مباي» التاريخي، والتي بدأت تشق طريقها الى التنفيذ بصورة منهاجية اعتبارا من نيسان ١٩٤٨، عبر التدمير المنهجي لاكثر من ٤٠٠ قرية عربية، وعبر اجبار حوالي ٧٥٠ الف فلسطيني على النزوح هربا او طردا؟! وللتدليل على خطط الترانسفير التي تبناها زعماء مباي (لقد كان رحبعام زئيفي محقا بادعائه انه لم يكن اول من طرح فكرة الترانسفير وانما ورثها من قادة في مباي) ساقتبس هنا فقرة من مذكرات يوسيف فايتس الذي عمل منذ العام ١٩٣٢ رئيسا للصندوق القومي (كيرن كيميت) حيث كتب يقول في العام ١٩٤٠:

يجب ان يكون واضحا بانه لا مجال اطلاقا لوجود شعبين في هذه البلاد. لن يكون بمقدور أي تطور ان يقربنا من هدفنا في ان نكون شعبا مستقلا في هذه البلاد الصغيرة. اذا رحل العرب عن هذه الديار فانها ستصبح واسعة ومشرعة فسيحة امامنا ، اما اذا بقي العرب فستبقى البلاد صغيرة وبائسة ... ان شراء الارض لن يفضي الى اقامة دولة اسرائيل. لا سبيل الا بترحيل (ترانسفير) العرب من هنا الى البلدان المجاورة، ترانسفير لجميع العرب (باستثناء بيت لحم والناصرة والقدس القديمة)... لايجوز لنا الابقاء على قرية واحدة او عشيرة واحدة.. عبر ترانسفير كهذا فقط يمكن لهذه البلاد استيعاب الملايين من اخوتنا لتحل مشكلة اليهود مرة والى الابد. ما من سبيل آخر».

عندما يتحدث ا . هـ. كار عن صعوبات خاصة يواجهها المؤرخ الحالي المعاصر «الذي لا يستطيع التجرد من شخصيته لدى محاكمة المتهمين بفظائع العصر، بينما لا يزال مئات الاف الضحايا يعيشون معنا»، اولا ينطبق ذلك علينا ايضا نحن الذين شاركنا في حرب ١٩٤٨ من الجانب الاسرائيلي ولعبنا دورا حاسما في التسبب بالنكبة الفلسطينية؟

عن الخيار

ليس لدي شك في ان النضال من اجل اقامة الدولة الفلسطينية على ٢٢٪ من مساحة ارض اسرائيل «الانتدابية» يشكل من وجهة نظر الفلسطينيين اختيار اهون الشرين ومع ذلك فان هذه التسوية المؤلمة لا تزال بعيدة عن متناول يدهم. نحن «المنتصرون» ونحن ننتصر اليوم تحت غطاء «محاربة الارهاب». وتعود القصة القديمة حول الحتمية واللاحتمية في التاريخ وعن الممارسات والافعال السلبية التي يرتكبها الطرف المحق في صراعه (عمليات التفجير التي ينفذها الانتحاريون

الفلسطينيون) لتكرر نفسها وان بمقاييس مختلفة بطبيعة الحال. يمكن للفلسطينيين ايضا وربما هم بالذات، اعادة طرح السؤال الساذج لـ بارأون بصيغة او ديباجة فلسطينية «ما هو الخيار المتاح لي ولزملائي في هذا الوقت؟ فهم من يملك الطائرات والدبابات ولسنا نحن من يملكها»..

لكن هذا سؤال كاذب مخادع. فالخيار حتى في ظل واقع اوسع من الحتمية قائم ومتاح دوما امام كل انسان وكل مجموعة. الشئ المختلف دائما هو درجة او حجم ذلك الخيار ودرجة اللاحتمية مقابل الحتمية.

يقول كار عن المقاومة: «لايجوز للمؤرخ التقليل من شأن المقاومة.. فقد كان للذين هزموا احيانا اسهام مهم في النتيجة النهائية بدرجة لاتقل عن اسهام الذين انتصروا».

ومن هذه الزاوية فقد كان لدينا (اي الذين حاربوا العام ١٩٤٨) خيار مقاومة هدم القرى العربية وتشريد الفلسطينيين بدرجة لا تقل عن الدرجة المتاحة لكل فلسطيني – اذا كان ذلك رأيه حقا– بالتصدي للانتحاريين ومن يقف وراءهم (الكاتب البارز س. يزهار فعل ذلك حقا في قصصه عن تلك الايام، في «خربة خزعة» و«اسير»)

لقد كان الخيار متاحا لكننا وبسبب جهلنا وعدم وعينا لم نجسد هذا الخيار. ولكن ما الصلة بين هذه الحقيقة المؤسفة وبين قول بارأون اليوم بانه «كان سيتصرف على هذا النحو تماما» (كلمة تماما مهمة جدا).

من الحاضر الى المستقبل

في ظل الواقع الفلسطيني المريع الذي نشهده، يطالب بني موريس سري نسيبة بان «يشتري الشيكل الصهيوني» لا اقل ولا اكثر بقوله : لازال يتعين علي ان ارى زعيما فلسطينيا محبا للسلام مثلما يبدو سري نسيبة، ينهض ويقول : الصهيونية هي حركة تحرر وطني مشروعة، كحال حركتنا، وان لليهود نفس الحق الذي نملكه في فلسطين».

هذا هو بالضبط المعنى الحقيقي لتماثل بني موريس مع الحتمية الصريحة لـ «بارأون» ومع انعدام خياره .

وحيث انه لا يوجد اي امل ان يسمع من سري نسيبة خطبا صهيونية، فان الحتمية تنتقل في نظره الى المستقبل: اما بلاد يهودية باكملها او عربية باكملها.

وطالما ان حتمية الماضي الجارفة ليست مقبولة لدي ، فكم من الحري ان ارفضها بالنسبة للمستقبل .

وفي الواقع فان الشعب الفلسطيني يجتاز اليوم مرحلة مهمة جدا من كفاحه للاستقلال الوطني ، ضد الاحتلال الاسرائيلي وضد معسكر بوش الذي «يحارب الارهاب» ويساند هذا الاحتلال. وعليه فان كفاح الفلسطينيين والذين يقفون الى جانبهم هو كفاح من اجل الحياة، صراع من اجل البقاء ومن اجل الارض التي لازلوا يعيشون فوقها.. صراع ضد الجوع.

وستكون المرحلة التالية مرة اخرى مرحلة في الصراع حول التسويات المؤلمة، حول دولة فلسطينية على مساحة لا تزيد عن ٢٢٪ من ارض اسرائيل الانتدابية.

فهل ستكون هذه ، اذا ماحدث ذلك ، خاتمة القصة او نهاية المطاف؟ لا اعتقد ذلك.

فقصة المصالحة الحقيقية ستبدأ حسب رأيي فقط عندما تتحقق مقولة كار حول «اهمية المقاومة»، وعندما حتى في ظروفنا ، «في النتيجة النهائية» «ترتقي مساهمة الذين هزموا الى مستوى مساهمة اولئك الذين انتصروا».

وبطبعة الحال فان ما اقصده هو العودة التدريجية لتجسيد فكرة دولة ثنائية القومية الواحدة، والتي تبناها الشيوعيون منذ اواسط الاربعينيات.

ان مبدأ التقارب بين الشعبين، كنقيض في الجوهر لتقديس الانفصال، هو الكفيل فقط بتحقيق المصالحة الحقيقية في يوم ما، وهذه المصالحة يمكن لها ان تتحقق فقط اذا رغب الشعبان بذلك وسط خلق ادوات قوامها المساواة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الشعبين.

انني لعلى قناعة تامة بان مثل هذه المصالحة سوف تتحقق على ارضية رؤية تاريخية اساسية مشتركة، والتي سمعنا عنها ايضا من خلال العديد من المتحدثين العرب، بحيث: نعترف نحن الاسرائيليون بـ «النكبة» الفلسطينية الفظيعة التي لعبنا دورا كبيرا للغاية في صنعها، ويعترفون هم، الفلسطينيون، بالكارثة الفظيعة التي احاقت بالشعب اليهودي، والتي كانت تتويجا لحملة لاسامية امتدت لاجيال.

ان مد جسر كهذا من المستقبل الثنائي القومية باتجاه الشعبين، من شأنه ان يجسد مقولة كار حول دور المؤرخ، والذي يبقى دون تحققه، دورا عقيما لاقيمة له: «العمل من اجل فهم الماضي في ضوء الحاضر وفهم الحاضر في ضوء الماضي».